المَدْرَسَتين الدينية والبيوغرافية الأوربيتين في فلسفة (تفسير) التاريخ

ق.12-14هـ/18-20م

الباحث: فراس نجيب عبد الرحمن، دكتوراه في تاريخ العرب والإسلام، باحث مستقل

- **مقدمة:**
- **أولاً- فلسفة التاريخ.**
- **ثانياً- المدرسة الدينية.**
- **ثالثاً- المدرسة البيوغرافية (سير الأشخاص والتراجم).**
- **خاتمة.**
- **قائمة المصادر والمراجع.**

مقدمـــة:

يشـغل التـاريخ مكانـاً رفيعـاً بـين فـروع المعرفـة الإنسـانية سـواءً فـي الشـرق أو الغـرب، ولا زالـت المؤلفـات التاريخيـة تأخـذ جانبـاً ضـخماً ممـا ينشـر كـل عـام، وربمـا زاد الاهتمـام بهـا أكثـر فـي الوقـت الحاضـر، ومـع ذلـك فمـا زالـت حقيقـة التـاريخ وطبيعتـه وحركته موضع خلاف ونقاش بين المؤرخين والفلاسفة والمفكرين عامة.

عنـدما يتأمـل الإنسـان ماضـيه وماضـي الحضـارات الإنسـانية وتبـدلها، يـدرك أن هنـاك دوافـع عديـدة تحـرك التـاريخ وتسـيره، لكـن أيـن هـذه الـدوافع؟ . وكيـف تعمـل؟ . ومـا مدى تأثيرها؟. وهل لكل من هذه الدوافع التأثير نفسه في حركة التاريخ؟.

لقد حاول الإنسان ومنذ القديم البحث عن ذلك وتفسير الشيء الغامض في حركة التاريخ، حاول معرفة المحور الذي تدور حوله عملية التاريخ، وتفسير الدوافع والحوافز لهذه الحركة.

فخرج الإنسان في نظريات وتفسيرات عديدة للتاريخ تتناسب مع واقعه الحضاري فلكل جيل نظرته للتاريخ يمليها عليه واقعه وظروفه الخاصة.

لاشك أن قلق الإنسان على مستقبله ورغبته في تطوير واقعه دفع الباحثين والمفكرين إلى التفكير في الوسائل التي يمكن عن طريقها إزالة مثل هذا القلق ، وضمان حياة أقل صعوبة من الحياة الحاضرة ، فكان لابد من النظر إلى الماضي وتحليله وتفسيره ومن هنا ظهرت نظريات ومدارس عدة لتفسير التاريخ، ومن هذه الفكرة تأتي **إشكالية البحث**.

اقتصر البحث على دراسة وتفصيل مدرستين اثنتين فقط من مدارس فلسفة التاريخ الحديثة (الدينية والبيوغرافية) التي ظهرت في الغرب الأوربي بين القرنين 12-14هـ/ 18-20 م

أهمية البحث: لتلك المدرستين أهمية خاصة في تفسير التاريخ، إذ أنها توضح الجوانب الخفية في التاريخ وتحلله تحليلاً علمياً، مما يساعدنا على دراسته وفهمه، كما تُعدان أقدم وأهم المدارس في تفسير التاريخ.

منهجية البحث: الدراسة لم تتعرض إلى النقاط التفصيلية للمدرستين، فذلك مطلب يطول، وربما هو من مهمة الفلاسفة، وما يهمنا هو النظرة الشاملة للتاريخ، ونظرة تلك المدرستين للتاريخ وكيف فسرتاه.

واستهل البحث بتفسير موجز لفلسفة التاريخ موضحاً أنها ليست علم مستقل بذاته وإنما هي رديف للتاريخ.

وتم ايراد تعريفاً لأهم رواد المدرستين، وبين أهم الانتقادات التي وجهت لكلا المدرستين، معتمداً في بحثي على ما توفر لي من مصادر ومراجع.

متمنياً أن يوفقني الله في بحثي هذا وينفعنا به.

أولاً– فلسفة التاريخ:

مصطلح فلسفة التاريخ له جاذبية كبيرة على العقول، حتى يعتقد الإنسان أن هناك علماً قائماً بذاته، أو فرعاً من فروع الدراسة التاريخية يسمى ((فلسفة التاريخ))، وذلك غير صحيح.

فلا وجود في الحقيقة لفرع من فروع المعرفة الإنسانية أو الدراسة التاريخية يسمى فلسفة التاريخ، لأن تعليل الحوادث ومحاولة البحث عن أسبابها والاجتهاد في استخراج الأسباب والأحكام العامة، كل هذه تدخل في صميم الدراسة التاريخية نفسها، ولا علاقة لها بالفلسفة. [1] وإنما تعد مهمة حقيقية للباحث عند كتابته البحث.

وبعبارة أخرى؛ لا يمكن أن نبحث في التاريخ دون فلسفة، ومصطلح فلسفة التاريخ قديم يرجع عند البعض إلى القديس أوجسطين (أوغسطين[2]) (354–435م)، وربما أقدم من ذلك.

[1] مؤنس، حسين : التاريخ والمؤرخون، دار المعارف، القاهرة، 1984، ص:40.

[2] ولد بتجستي في شمال إفريقية، شب على وثنية أبيه ثم اعتنق المسيحية ودافع عنها دفاعاً شديداً، مماجعله في العالم المسيحي بمنزلة الإمام. وأشهر كتبه اعترافات ومدينة الله (الموسوعة العربية الميَسَرة، إشراف: محمد شفيق غربال ، دار الشعب،القاهرة، د.ت،ص:226)

لكن هذا المصطلح عُرف كموضوع مستقل ولأول مرة في القرن الثامن عشر على يد مفكري عصر الاستنارة، فمن يقول أنه يرجع إلى فيكو الإيطالي (1668-1774)[3] وعند البعض الآخر إلى فولتير.[4]

فولتير كان يقصد بفلسفة التاريخ دراسة التاريخ من وجهة نظر الفيلسوف أي: دراسة عقلية ناقدة ترفض الخرافات. وتنقح التاريخ من الأساطير والمبالغات.

وعرفها الفيلسوف الألماني هيغل[5]: (أشهر فلاسفة القرن التاسع عشر) على أن فلسفة التاريخ هي دراسة التاريخ من خلال الفكر، مانحاً بذلك فلسفة التاريخ بعداً تأملياً مجرداً. [6]

والحق أن فلسفة التاريخ بمعنى البحث عن العلل والأسباب، أقدم من القرن الثامن عشر وعصر الاستنارة الأوروبية، فقد أشار إلى ذلك دون أن يستخدم المصطلح نفسه ابن الأثير في كتابه ((الكامل في التاريخ)) في القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي، وأهم من ذلك ابن خلدون في ((مقدمته)) في القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي، فقد تنبها إلى ضرورة التعليل والتفسير، فميز ابن خلدون بين الظاهر والباطن في التاريخ بقوله:

---

[3] الدسوقي، عاصم: البحث في التاريخ، مكتبة القدسي، أسيوط،د.ت، ص96.

[4] فولتير (1694-1778) فيلسوف ديني وأديب ساخر ومؤرخ فرنسي، من أبرز رجال حركة التنوير، ناضل ضد الحكم الاستبدادي والكاثوليكية، (المعجم الفلسفي المختصر، ترجمة: توفيق سلوم، دار التقدم، ط:4،موسكو، 1986، ص:576).

[5] هو جورج فيلهلم فريدريش هيغل ، ولد عام 1770م في شتوتغارت في المنطقة الجنوبية الغربية من ألمانيا، وأصبح من كبار فلاسفتها، وتوفي 1831م. كارل روزنكرنز، *حياة هيغل*، دنكر وهمبلت، 1844، صفحة 19.

[6] النجار، جميل موسى: دراسات في فلسفة التاريخ النقدية، بغداد، ط:1، 2004، ص:192.

"في ظاهره لا يزيد عن أخبار عن الأيام والدول والسوابق من القرون الأولى، وفي باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق" [7] ووصفه ابن خلدون بالحكمة والعراقة، كما انتقد ابن خلدون فحول المؤرخين في الإسلام الدين استوعبوا أخبار الأيام وجمعوها وسطروها في صفحات الكتب دون أن ينظروا بأمرها ويلاحظوا أسبابها ويراعوا أحوالها.

لكن وللأسف فابن خلدون وابن الأثير كانا ظاهرتين فرديتين وفريدتين لم يقتفي أثرهما أحد من العرب لكي يطوروا ما بدأه كل منهما. [8]

ربما الأوضاع التي مرت بها البلاد العربية والإسلامية من تناحر مذهبي وسياسي ومن ثم الخضوع للاستعمار والسيطرة الأجنبية، لم تساعد على ذلك.

إن الفرق بين طبيعة علم التاريخ، وطبيعة مباحث الفلسفة جسيم، فالفيلسوف فيلسوف بالطبع أو الاتجاه وأسلوب الفكر وطريقة النظر والاستدلال، والمؤرخ مؤرخ بطريقته ومنهجه والغايات التي يرمي إليها من وراء ما يكتب في التاريخ، ولهذا فإن كبار ما نسميهم فلاسفة التاريخ كانوا يرون أنفسهم مؤرخين فحسب، فأرنولد توينبي[9] الذي يعد أكبر فلاسفة عصره، كان يسمي نفسه مؤرخاً.

ولا مانع للمؤرخ من التفلسف إذا شاء، شرط أن يستوفي شروط الدراسة التاريخية في ما يكتب أولاً، ثم يتفلسف إذا شاء، وفلسفته هذه لا تسلكه قط في زمرة الفلاسفة. [10]

---

[7] ابن خلدون، عبد الرحمن: مقدمة ابن خلدون، تح: خليل شحادة، دار الفكر، ط:1،د.ت، ص:6.

[8] الدسوقي: البحث في التاريخ، ص:98.

[9] وُلِد أرنولد تُوينبي في لندن، عام 1889، ودرَس في أكسفورد، وتقلَّب في عدَّة مواقع ومهام علمية، وشُهر بدراسة التاريخ والحضارات، ، إلى أن تُوفِّيَ في عام 1975 .خوري، منَح: التاريخ الحضاريّ عند تُوينبي، بيروت، دار العلم للملايين،1960.

[10] مؤنس، التاريخ والمؤرخون، ص: 41.

ونستطيع القول، أنه لا يوجد بالفعل علم أو فن يسمى فلسفة التاريخ، فحقاً هناك مؤرخين لهم نظرات بالغة العمق في الحكمة وآراء عامة في الغاية من الصدق والسداد، ولكن ذلك لا يخرجهم من نطاق التاريخ.

ثانياً- مدرسة التفسير الديني للتاريخ:

تشير هذه النظرية إلى أن التاريخ مسرحاً لتحقيق إرادة الله على الأرض، وهذا يعني أن للإله تدخل فعلي في تسيير حياة الناس، وأن الله لم يخلق العالم سدى وإنما خلقه لغاية، وبالتالي فإنه حريص على تسيير العالم في مسيرته التاريخية نحو الغاية التي وضعها الله، وأن منطق الأحداث مهما كان ينتهي دائماً إلى الغاية التي خططها الله تعالى للعالم.

هذه النظرة الدينية ظهرت عند العديد من المؤرخين، خاصة في القرون الوسطى. [11]

ويرى المؤرخون أن التاريخ البشري لم يعرف فترة لم يكن فيها الدين مؤثراً تأثيراً إيجابياً في حياة الإنسان، وأنه أول المسائل الأساسية في الأزمان الغابرة والحاضرة، وأن الآلهة لعبت أكبر دور في الحياة الإنسانية، وأن الدين أسرع مؤثر في الأخلاق، لا يدانيه مؤثر، اللهم إلا الحب.

حيث يقول غوستاف لوبون "مَثَّل سريان المعتقد في اللاشعور- بفعل العدوى النفسية والتلقين والنفوذ....- دوراً في حياة الشعوب أعلى من الدور الذي مثله العقل فيها"، كما أنه يرى أن تاريخ الأمم مؤلف من تاريخ آلهتها و "لا يكون من المبالغة أن يقال إن معظم تاريخ الأمم مؤلف من تاريخ آلهتها" حياة كل أمة تخضع لتدخل الآلهة

[11] يزبك، قاسم : التاريخ ومنهج البحث التاريخي، دار الفكر اللبناني ، ط:1، بيروت، 1990، ص39.

الدائم. [12] والسبب في قوة الدين العظيمة كونه العامل الوحيد الذي تتوحد به في وقت ما منافع الأمة ومشاعرها وأفكارها، فيقوم المبدأ الديني بذلك دفعة واحدة مقام غيره من العناصر التي تتكون منها روح الأمة. [13]

ويرى أوغسطين أن الأحداث التاريخية ليست سوى بنت الإرادة الإلهية، وأن العناية الإلهية تلعب دورها في الأحداث التاريخية، وبناء على ذلك يرفض الفيلسوف برتراندراسل فكرة التنبؤ الكامل بأحداث التاريخ، ويضرب مثلاً على ذلك بقوله هل كان أحد من المؤرخين القدامى يتوقع اكتشاف القارة الأمريكية مثلاً، وما تلا ذلك من تطورات، وكما أن المستقبل قد يخبئ لنا الكثير، إذاً فلابد أن يكون هناك قوى لا نراها تلعب دورها وتحرك مسار التاريخ فيها.

ومن أقطاب هذه المدرسة أيضاً المؤرخ سالفيا نوس الذي فسر سقوط روما على أنه غضب وانتقام من الله، لأن عباده الرومان المسيحيين ضلوا عن سبيله. [14]

ويعترف المؤرخ البريطاني هـ.ج. ويلز بدور الدين في التاريخ ويرى أن بدايات الحضارة وظهور المعابد شيئان متلازمان متآنيان على مر التاريخ وأن الأمران يسيران جنباً إلى جنب.

ويرد توينبي الحضارات إلى الأديان، ذلك أن الامبراطوريات ليست هي مقياس الحضارة، بل على العكس أنها تمثل بداية مرحلة انهيار الحضارة.[15] ويرى أنه وراء

---

[12] لوبون، غوستاف: فلسفة التاريخ، تر: عادل زعيتر، دار المعارف ، مصر، 1954، ص:132-133.

[13] الشرقاوي، محمود: التفسير الديني للتاريخ، كتاب الشعب، ط:1، ص:125.

[14] ياغي، اسماعيل محمد أحمد: مصادر التاريخ الحديث ومناهج البحث فيه، مكتبة العبيكان، الرياض، 1999، ص:200-202.

[15] الشرقاوي: التفسير الديني، جـ:1، ص:125.

كل حضارة من الحضارات القائمة اليوم ديانة عالمية، فالعقائد الدينية هي التي تُسيّر مجرى التاريخ، وأنه إذا كان هناك مستقبل لحضارة ما من الحضارات القائمة حالياً فذلك في حدود هذه الأديان وبسبب منها. (16)

يرى أرنولد توينبي أن الصراع كان قائماً في الماضي بين الدين والفلسفة، أما الصراع الحالي فبين الدين والعلم، وعلى الدين أن يسلم للعلم جميع المجالات التي هي من اختصاصه، على أن ذلك لا يعني إمكان الاستغناء عن الدين بالعلم، فإن انتصار العلم على الدين انتصاراً ساحقاً يشكل كارثة على الدين والعلم معاً، وأن أخطر كارثة يواجهها العالم اليوم أن الجماهير – خصوصاً الغربية – قد استعاضت عن الفراغ الديني بأيديولوجيات لا تفترق عن الأديان البدائية من حيث وثنيتها، من حيث عبادة الذات، وإن تسترت تحت ستار القومية أو الاشتراكية متمثلة في تأليه الدولة أو الحاكم. (17)

ويرى غوستاف لوبون، أن الدور الذي يمثله الآلهة في التاريخ بلغ من القوة مالم تستطيع أمة أن تغيره من غير أن ترى حياتها تتحول تحولاً تاماً، ويضرب على ذلك مثلاً القبائل العربية البدوية قبل الإسلام والتي توحدت بالدين الجديد بقيادة محمد ﷺ، فلم تلبث أن بلغت من القوة ما أقامت معه إمبراطورية عظيمة. (18)

(16) صبحي، أحمد محمود: في فلسفة التاريخ، الجامعية الليبية، مكتبة القضمان، دمشق، ص:266.

(17) الشرقاوي: التفسير الديني، جـ:1، ص:125-127.

(18) لوبون: فلسفة التاريخ، ص:135.

كما يؤكد لوبون على أثر الدين في شعوب مصر القديمة وغيرها من الشعوب الشرقية ، وأنه دخل في جميع أعمال حياتهم العامة والخاصة، فنجدها حتى في الكتابات التافهة. [19] لذلك يستنكر وجود أمة مجردة من معتقدات دينية، ويرى أن العالم لم يعرف أمة من هذا النوع بعد، وأنه لن تكون مثل هذه الأمة، ((فالاحتياجُ الوجدي إلى دينٍ موجِّهٍ مُثبِّت أمر لا تبديلَ له"، وأن التقبل الديني لم ينقص نقصاً محسوساً في غضون القرون على الرغم من بعض الظواهر. [20]

فالذين يعدون الأديان سرطانات مخطئون، فإن السرطان الحقيقي هو أن تحل الحضارات أو الأيديولوجيات السياسية محل الأديان، لا أن تحل الأديان محل الأيديولوجيات.

لقد تعرض مفهوم العناية الإلهية في تفسير التاريخ للنقد من جانب رجال الكنيسة الأوربية ، ومن الفلاسفة بطبيعة الحال، فقد قال الأب دارسي أنه لن يكون مجدياً لو أن الباحث في التاريخ أجاب على كل سؤال يتعلق بالتاريخ بقوله : "إن يد الله كانت وراء ما حدث".

إذ يجب البحث عن الأسباب أولاً، ولا يعني هذا إغفال يد الله، وقد سبقه بوليبيوس إلى هذا بقوله: حينما يكون من الممكن إيجاد سبب لما يحدث، فلا ينبغي للمرء أن يلجأ إلى الآلهة إذ لا يصح أن يكون الدين أشبه بالجوكر في لعبة الورق.

وهناك من قال بأن هناك انفصال كامل بين التاريخ الإلهي والتاريخ الدنيوي، وأن التاريخ الدنيوي من مهمة العلمانيين، إلا أن فولتير انتقد هذا المفهوم جدلياً واستبعده كأساس لتحديد مسار التاريخ، وعارض فكرة امتحان الإنسان بالخير والشر، وانتهى إلى القول بأن الله خلق العالم وفقاً لقوانين ثابتة لا علاقة لها بأفعال الإنسان من خير أو شر، وأن الله منح الإنسان العقل ومن ثم فإن التاريخ يسير بمقتضاه نحو الأفضل والأحسن.[21]

---

[19] الشرقاوي: التفسير الديني، ص:128.

[20] لوبون: فلسفة التاريخ، ص:136.

[21] الدسوقي: البحث في التاريخ، ص:110-111.

ويعترف بوسويه [22] بأن هناك أسباب ربانية ومسببات إنسانية للأحداث التاريخية، ولكن يؤكد على وجوب البحث عن الأسباب الخاصة للحوادث والبواعث التي جعلها الله سبباً لرفعه أمة أو سحقها. [23]

ويعني هذا التفسير أن حركة التاريخ تقوم على معتقدات دينية اعتنقها الإنسان منذ القدم ولعبت دورا بارزا في تقدم الإنسان وبناء حضارته، فالحضارة الفرعونية كانت تقوم على معتقدات دينية، والفكر الصهيوني يستند إلى ركائز دينية، والعقيدة المسيحية كان لها أثرها في تاريخ البشرية، كما أن الدين الإسلامي كان له دور كبير في بناء حضارته وامتداده في العالم.
ولكن هذا العامل لا يكون دائم التأثير، وإنما ينتاب الأمم فترات من الضعف والتأخر بسبب ابتعادها عن تعاليم الدين، ليس ذلك فحسب، وإنما وجد في أوربا في المرحلة الزمنية ذاتها من عارض تلك الأفكار وأهمل دور الدين وغيّبه، لا؛ بل عارضه بشدة، وبرر تلك الفكرة بأنها أوهام وأساطير.

ولا شك أن جهل رجال الدين ، وانطماس بصائرهم ، واستغلالهم للناس بصكوك الغفران ؛ جعل عند الأوساط المثقفة وغيرها نفوراً من الدين . إضافة لعوامل أخرى أثرت على الفكر الغربي الحديث ، مثل الثورة الصناعية ، وظهور الفلسفات البرجماتية والمادية والماركسية واللبرالية التي أثرت على بنية المجتمع الأوربي فحطمت الكثير من القيم والتقاليد ، ناهيك عن ظهور العلمانية في مفهومها الواسع : "فصل الدين عن الحياة"، فظهرت المقولة المشهورة : " دع ما لقيصر

[22] أسقف فرنسي شهير (1627-1704)م، مؤلف كتاب ((رسالة عن التاريخ العالمي)). أوضح فيه رأيه بأن مصائر الشعوب وقيام الامبراطوريات واضمحلالها إنما تنظمها العناية الإلهية. (ياغي: 205).
[23] ياغي: ص:206.

لقيصر وما لله لله" [24]. ومما يؤكد ذلك ؛ أن مؤرخ الحضارة الألماني (بور كار) يرى أن الفصل بين الدين والدولة والحضـارة ، من أهم الأمور للتحرر من الأسـطورة، أي (الدين)، أيضـاً جاء في أقوال رواد الثورة الاشتراكية في الإتحاد السوفيتي (ماركس ولينين وستالين) أن الدين والأخلاق أوهام تتستر خلفها المصالح ، والدين هو أفيون الشعوب.

وهكذا نجد أن التاريخ الأوربي في العصـر الحديث تأثر بالإلحاد والشـيوعية ، وتأثر بالعلمانية ، وما من شـك في تأثير الصـهيونية اليهودية على الفكر الأوربي آنذاك[25]، ويبدو أن هذه الدعاية سرت وانتقلت إلى المشرق العربي والإسلامي[26].

ثالثاً- المدرسة البيوغرافية (مدرسة سير الأشخاص أو التراجم):

تركز هذه المدرسة على تفسير الأحداث من خلال النظر في الجوانب الإنسانية والبيئية والثقافية، وتعد الإنسان وسياقه الاجتماعي والثقافي جزءًا أساسيًا من الأحداث التاريخية.

[24] المصري، محمد: موقف أهل السنة والجماعة من العلمانية، مجلة البيان، المنتدى الإسلامي، عدد9، ص9. فخري، ممدوح: الغزو الفكري، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ط1، عدد1، 1389هـ، ص23-24.

[25] راجع محمد، جعفر: اليهود وأسلوب الكذبة الكبرى، مجلة البيان، المنتدى الإسلامي، عدد36، ص31.

[26] للمزيد راجع البشير الإبراهيمي، محمد بن بشير (ت1385هـ): آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم : أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1997، ج3، ص142-175.

خضر، أحمد إبراهيم: علماء الاجتماع والعداء للدين، مجلة البيان، المنتدى الإسلامي، عدد45، ص37.

تقوم هذه المدرسة على تفسير وقائع التاريخ وأحداثه استناداً إلى جهود قامت بها شخصية ما في مجال من المجالات وخاصة في مجال السياسة، وأن التاريخ هو السيرة المشتركة لعظماء الإنسانية.

لذلك فهي تولي أهمية كبيرة لدور الفرد في التاريخ ،أو دور الرجل العظيم ، أو دور البطل.

والحق أن هذا المفهوم يعد – تاريخياً– أقدم من المفهوم الديني، فقبل أن يعي الإنسان الآلهة اعتقد أنه يستطيع السيطرة على الطبيعة سيطرة مباشرة ويسخرها لصالحه وذلك عن طريق أعمال السحر. [27]

ومن زعماء هذه المدرسة في القرن التاسع عشر الأمريكي رالف والدو ايمرس (1803-1882)، فالفردية الإنسانية بالنسبة إليه هي أحد الوجوه الرئيسية لتصوره للتاريخ، وأن درجة الحضارة تقاس – بالنسبة إليه – بنموذج الرجال الذين أنجبتهم هذه الحضارة عامة، وأن هناك أناس خارقون، عظيمون، وتمثيليون قادوا الإنسانية إلى "اللحظات العظيمة" في التاريخ. [28]

ويرى أن الطبيعة وجدت للممتاز، وأبرز أن التميز هو التميز الروحي لا المادي، وفرّق بين العظمة التقدمية، والعظمة المهاجمة أو المعتدية.

فنابليون بونابرت وعلى الرغم أنه أظهر كفاياته المختلفة، إلا أن أمرسون يرى فيه شهرة كبيرة ترافقها ضجة ضخمة...، فهو ليس إخلاصاً وإيماناً؛ وإنما إنساناً كان مستعداً أن يسرق، ويقتل، ليحقق مصلحته الخاصة.

---

[27] الدسوقي: البحث في التاريخ، ص:113.

[28] ويدجري، ألبان: المذاهب الكبرى في التاريخ، تر: ذوقان قرقوط، دار القلم ، ط:2، بيروت، 1979، ص:238-240.

فالتاريخ بالنسبة لأمرسون ليس وسيلة "لعبادة البطل" وإنما هو أداة للتمييز بين الأبطال الحقيقيين والمزيفين. [29]

وكذلك من رواد هذه المدرسة الفيلسوف الإنكليزي – الاسكتلندي توماس كارليل (1795-1881) صاحب كتاب ((الأبطال وعبادة البطل))[30]

فهو يرى أن التاريخ الشامل هو ما أنجزه الإنسان في هذا العالم، وهو في قرارة الأمر تاريخ الرجال العظام الذين عملوا فيه، وكانوا القادة والقدوة والنموذج، وكل ما نراه من إنجاز في العالم هو حرفياً النتيجة المادية والتحقيق العملي والتجسيد للأفكار التي عمرت بها مخيلة الرجال العظام المرسلين إلى العالم. ويرى كارليل أن تاريخ العالم هو سيرة الرجال العظام. [31]

إذاً فالجماهير لا أهمية لها في التاريخ، لأن العمود الفقري له هو ((العظماء)).

إلا أن كارليل لم ينظر إلى عظماء العسكريين، والملوك فحسب، بل أدخل في دائرة العظماء، الأنبياء، وجميع المعلمين الذين أناروا للبشرية طريقها.

إذ أنه قاس العظمة لا بمولد الإنسان وطبقته، وإنما بموهبته، وعطائه للمجموع.

لذا فإن درس التاريخ الهام والوحيد- بالنسبة إليه – هو ((تفوق البطل، وضرورة عبادته)). وعلى عكس أمرسون فإنه يرى في نابليون أعظم الرجال في عصره، والذي لم ير العالم نظيراً له منذ عصور. [32]

وعندما وجهت سهام النقد إلى أفكار كارليل عن البطل والبطولة، مشيرة إلى أن البطل ابن عصره ووليد مجتمعه، اعترض كارليل على ذلك بقوله:

---

[29] الصباغ، ليلى: منهجية البحث التاريخي، منشورات جامعة دمشق،د.ت، ص:344-345.

[30] الصباغ: ص:344..

[31] ويد جيري: ص:241.

[32] الصباغ: ص:344-345.

"إنهم يقولون عن البطل أنه ابن عصره، أي أن عصره هو الذي أوجده، وينسبون كل شيء إلى عصره، ولكني عرفت عصوراً تصرخ عالياً، تنادي مطالبة بالعظماء، لكنها تفقدهم. أين البطل؟! ليس هناك... أين الزعيم...؟! لا زعيم...

ومع أن البطولة تنحصر في تصورات الناس في المجال السياسي والعسكري إلا أن كارليل وسع حدودها لتشمل مجالات الإبداع المختلفة.[33]

وفي نظر هولباخ [34] فإن تاريخ الشعب اليهودي من صنع رجل واحد هو موسى عليه السلام الذي صاغ طابع اليهود وأعطاهم تكوينهم الاجتماعي والسياسي، كما أعطاهم دينهم. وكان هولباخ يضيف أن كل شعب له موساه. [35]

وفي عام 1939 واستناداً إلى كتاب كارليل، وضع سير تشارلز أومان قائمة بأسماء الشخصيات الفذة، صانعي العصور الذين غيروا مجرى التاريخ.

وفيما بعد نشر المؤلف الأمريكي مايكل هارت كتاباً في ستمائة صفحة بعنوان ((المائة : تقويم لأعظم الناس أثراً في التاريخ)). وأقام أسس اختياره على أن يكون الشخص عميق الأثر وعالمي وليس إقليمي، ومن هنا استبعد كل الزعامات التي لها أثر محلي فقط. [36]

حتى أن أصحاب النظرة المادية (الاقتصادية) في التاريخ يعترفون بدور الرجل العظيم في التاريخ، ويرون أن هناك نمطان من العظماء:

1. رجل الفكر العظيم: ودوره أن يهيئ أذهان الناس للتغيرات الثورية.

---

[33] الدسوقي: البحث في التاريخ، ص:116.

[34] بول هولباخ (1723-1789) فيلسوف مادي وملحد فرنسي، من منظري الثورة الفرنسية البرجوازية، ومن مؤلفاته (فضح المسيحية) (المعجم الفلسفي المختصر،ص:589).

[35] بليخانوف، جيورجي: فلسفة التاريخ – المفهوم المادي للتاريخ، د.م، د.ت، ص:30.

[36] الدسوقي: البحث في التاريخ، ص:116-117.

2. رجل الفعل: ودوره أن ينظم النضـــال بين الطبقات التي تنهض لإنجاز قضـــيتها بواســـطة الثورة.ولكن يرى هؤلاء الماديون أن الرجل العظيم يظهر عندما تكون الحاجة إليه ماسـة. أما ظهور شـخص بعينه في مرحلة ما من المراحل فهو مجرد صـدفة. ويرون أن الثورة الروسـية كانت بالضرورة خليقة بأن تقع، عاجلاً أم آجلاً، حتى بدون لينين. [37]

والمؤرخون المعاصرون من "مدرسة التراجم" تجاوزوا كثيراً مفهوم ((عبادة البطل)) ، وغدوا لا يعتقدون باختيار بعض أفراد لدراســـتهم، وإهمال بقية الإنســـانية، بل على العكس، يعترفون بمركز "الإنسـان العادي" وقيمته في التيار العام للتاريخ، ولكنهم يرسـمون الاتجاه العام لهذا التيار، عبر أعمال الشخصيات التي برزت إلى السطح، لتركب هذا التيار، ومن خلال أفكارها.

كما أن مؤرخوا سير الأشخاص "التراجم" لم يتنازلوا اليوم عن الديمقراطية لصالح حفنة من الأرستقراطيين، وإنما أكدوا عن طريق إيضـاحهم لحياة شـخصـياتهم، أن التاريخ ليس سـرداً لتاريخ سنوات، وإنما ((قصة حياة)). [38]

كما يرى نقّاد هذه المدرسة أنها تتجاهل دور البيئة الاجتماعية والظروف المحيطة التي يظهر من خلالها هؤلاء الأفراد المتفوقون ويمارسون نشاطهم في محيطها. [39]

أهمية مدرسة التفسير البيوغرافية

- تساهم في فهم الأحداث من منظور إنساني واقعي.

---

[37] عبـد الحميـد، صـائب: فلسـفة التـاريخ في الفكـر الإسـلامي، دار الهـدى، ط:1،بـيروت، 2007، ص:116-117.

- فلاديمـير ايليـتش لينـين (1870-1924)، مـن أبـرز مطـوري الماركسـية، زعـيم البروليتاريـا الروسـية والعالميـة، مؤسـس الحـزب الشـيوعي السـوفيتي والدولـة السـوفيتية (المعجـم الفلسـفي المختصر : 582)

[38] الصباغ: ص:345.

[39] الدسوقي: البحث في التاريخ، ص:117.

- تعزز الوعي بالتأثيرات البيئية والثقافية على الأحداث.
- تساعد في تجنب الاعتماد الكلي على الجوانب السياسية أو العسكرية في تفسير الأحداث
- تعد التراجم والسير الذاتية للدعاة والعلماء جزءًا من الإرث الثقافي والديني.
- تساهم في نقل تجارب الحياة والعلم والتفكير للأجيال اللاحقة.
- تعزز الوعي بالشخصيات التي كان لها تأثير كبير ومفيد.

ومن دراسة هذه النظرية والمدرسة نفهم أن عظماء الرجال هم الذين يحركون التاريخ، وهم الذين ينهضون بأممهم ويسيطرون على ما يحيط بهم من قوى سياسية واقتصادية واجتماعية، ولا شك أن لعظماء الرجال دورهم في صنع التاريخ، ولكن هذا الدور ليس دوراً مجرداً إنما هو محصلة لتفاعل عدد من المؤثرات الداخلية والخارجية تجسدت في النهاية في دور الزعيم، ومن القادة الذين توفرت لهم تلك الشروط: الاسكندر الأكبر ويوليوس قيصر، وعمر بن الخطاب، وصلاح الدين الأيوبي، ونابليون، وليس ضرورياً أن تكون صفات القائد إيجابية أو خلقية، فهمجية تيمورلنك ودكتاتورية هتلر وروح تشرشل الاستعمارية كلها عوامل أساسية في بروزهم.

خاتمـــة:

للمدرستين المدروستين (الدينية والبيوغرافية) أهمية خاصة في فلسفة وتفسير وتعليل الأحداث التاريخية، إلا أن ذلك لا يُنكر أهمية المدارس الأخرى في ذلك، والتي سيأتي عليها الباحث في أبحاث أخرى قادمة، وهنا يجب عد هذه المدرستين وجهات نظر يجب تكاملهما مع غيرهما من المدارس التي دَرست وفَسّرت التاريخ.

وهنا لا بدّ من التأكيد على أهمية الدين في تفسير مسير الأحداث التاريخية، وذلك كائن لا محالة، فحتى الشعوب اللادينية كانت ترى أن هناك محركاً خفياً للأحدث، وغالباً ما عللت ذلك بقوى خارقة للطبيعة.

وأيضاً مدرسة التراجم يُعزز أفكارها وآرائها سِير بعض الشخصيات وانجازاتهم الهامة عبر العصور التاريخية عامة.

في النهاية، يجب أن نتذكر أن تفسير التاريخ هو عملية اجتهادية قابلة للتعديل والتحسين، وإذا كان التأريخ للنظريات والمناهج التفسيرية يفيد في رصد جهود العلماء في وضع أسس نظرية للتفسير، وتطور هذه الجهود، وما يحتاج منها إلى تتميم أو ترميم أو إضافة؛ فإنّ التأريخ للقضايا والمسائل والمفاهيم العلمية المتداولة في كتب التفسير مهم جدًّا في رصد التطوّر الحاصل في هذه المسائل نفسها، والتطوّر الحاصل في التفسير عمومًا، بحيث يمكن ملاحظة لحظات الإبداع والتجديد في تاريخ العلم، ولحظات الخمود والتقليد فيه مع ربط ذلك بأسبابه وملابساته

قائمة المصادر والمراجع

المصادر

1. البشير الإبراهيمي، محمد بن بشير (ت1385هـ): آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم : أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1997.
2. ابن خلدون، عبد الرحمن: مقدمة ابن خلدون، تح: خليل شحادة، دار الفكر، ط1.

المراجع العربية

3. بليخانوف، جيورجي: فلسفة التاريخ المفهوم المادي للتاريخ.
4. عبد الحميد، صائب: فلسفة التاريخ في الفكر الإسلامي، دار الهدى، ط:1،بيروت، 2007.
5. خضر، أحمد إبراهيم: علماء الاجتماع والعداء للدين، مجلة البيان، المنتدى الإسلامي، عدد 45.

6. الدسوقي، عاصم: البحث في التاريخ، مكتبة القدسي، أسيوط.
7. الشرقاوي، محمود: التفسير الديني للتاريخ، كتاب الشعب، ط:1.
8. الصباغ، ليلى: منهجية البحث التاريخي، منشورات جامعة دمشق.
9. صبحي، أحمد محمود: في فلسفة التاريخ، الجامعية الليبية، مكتبة القضمان، دمشق.
10. فخري، ممدوح: الغزو الفكري، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ط1، عدد1، 1389هـ.
11. محمد، جعفر: اليهود وأسلوب الكذبة الكبرى، مجلة البيان، المنتدى الإسلامي، عدد36.
12. المصري، محمد: موقف أهل السنة والجماعة من العلمانية، مجلة البيان، المنتدى الإسلامي، عدد9.
13. خوري، منَح: التاريخ الحضاريّ عند تُوينبي، بيروت، دار العلم للملايين،1960.
14. الموسوعة العربية المُيَسَرة، إشراف: محمد شفيق غربال ، دار الشعب، القاهرة.
15. مؤنس، حسين : التاريخ والمؤرخون، دار المعارف، القاهرة، 1984.
16. النجار، جميل موسى: دراسات في فلسفة التاريخ النقدية، بغداد، ط:1، 2004.
17. ياغي، اسماعيل محمد أحمد: مصادر التاريخ الحديث ومناهج البحث فيه، مكتبة العبيكان، الرياض، 1999.
18. يزبك، قاسم : التاريخ ومنهج البحث التاريخي، دار الفكر اللبناني ، ط:1، بيروت، 1990.

المراجع المعربة:

19. كارل روزنكرنز، حياة هيغل، دنكر وهمبلت، 1844.
20. لوبون، غوستاف: فلسفة التاريخ، تر: عادل زعيتر، دار المعارف ، مصر، 1954.
21. المعجم الفلسفي المختصر، ترجمة: توفيق سلوم، دار التقدم، ط:4،موسكو، 1986.
22. ويدجري، ألبان: المذاهب الكبرى في التاريخ، تر: ذوقان قرقوط، دار القلم ، ط:2، بيروت، 1979.